بين يدي النص

أوَّل ما ينبغي التنبُّه إليه أن سُورةَ يوسفَ عليه السَّلام مكيَّة. وإذن تكون هذه الموسيقى الداخلية المميَّزة التي تَعبقُ بها أنفاسُ السُّورة[1] قد كان لها جَرسُها (بتسكين الراء) المميز في ليِّ (بتضعيف الياء وكسرها) أعناق أساطين اللغة والبلاغة من أهل مكَّة ممن كان القرآن الكريم يقرع آذانهم، ويصدع نفوسهم، ويحملهم على التفكُّرِ والتدبُّرِ، واتِّخاذ المواقف إيماناً أو عناداً.

وقد كان تجليةُ هذه السورة في هذا النَسق الكريم من القصص إنما كان من خلال هذا الأفق الكريم الذي كانَ مِسكَ الختام لهذه السُّورة في قوله تعالى ﴿لقد كانَ في قَصَصهم عِبرةٌ لأولي الألباب؛ ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ [سورة يوسف: ١١١].

---

(١) يقول الأستاذ محمد المبارك من كلام حول السُّورة الكريمة: (. . . أضف إلى ذلك عذوبة نغمات هذه السُّورة وحلاوة نسجها، كيف لا وناظم كلامها وصانعها هو صانع الحياة نفسها. وإنك إذ تقرأ هذه السُّورة أو تستمع إلى من يقرأها لتحس بموسيقى عذبة علوية ترافق ما يتراءى لك فيها من صور الحياة الإنسانية وما تقرأه من ورائها من أحكام القضاء وسطور القدر).

: دراسة أدبية لنصوص من القرآن. ط٤ (دار الفكر. بيروت: ١٩٧٣م) ص ٨١.

وإذن تكـون النظرةُ التذوقيَّة لجمال الفنيَّة القَصصية في هذا المقام الكـريم من خلال المقـاييس البـلاغية ألا وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحـال. وبقـدرِ ما تكون السُّورة قد نجحت في تعميق الإحساس لدى المؤمن المتدبر بهذا الأفق وأطيافه كمثل ما فَصَّلته الآية القرآنية الكريمة بقدرِ ما يتراءى الجمالُ الفني ويشعُّ في عيني المتذوق إن كان ثمَّة عنده استعدادٌ مُؤاتٍ، وقريحة نفَّاذة، وطبع حادٌّ. أو كما يقول الإمام عبدالقاهر الجرجاني: (وبقدر ما يكون المرء من التهاب الطبع وحدَّه القريحة بقدر ما يتغلغل في الأسرار، وبقدر ما تكون له ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفي).[1].

ويبدو أن إحساس رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم بهذه السُّورة قد كان عظيماً عظيماً. يُنبيك به هذه الاستشهادات من السورة في المواقف الكبيرة والانعطافات الحادَّة على لسان النبي ﷺ وصحابته الأطهار علاوة على التهيج للانتباه في قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ في معرض ختام السـرد القصصي ﴿ذلـكَ من أنباءِ الغيبِ نوحيه إليك وما كنت لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ [سورة الاسراء: ١٠٢].

وما كان يكون من ألطاف الله تعالى في مواضع التأزم ومواقف الحَرج إلَّا وكان الله تعالى يلفت رسوله محمداً ﷺ إلى ما كان من التدبير الإلهي. ولا غروَ في ذلك، فإن يوسف قد مضى وانقضى، وإنما الأملُ معقودٌ على أمة محمد ﷺ في إحياء الدين وإقامة موازين الحق والعدل ووراثة السماء والأرض كمـا يريد الله تعـالى وكمـا بيَّنـه الرسول ﷺ وصحابته الأطهارُ الأبـرارُ. من ذلك مثلاً ما جاء من التعليق على فِعل السيَّارة حين أسرُّوا يوسف بضاعة إذ قال تعالى عقب ذلك ﴿واللهُ عليمٌ بما يعملون﴾ [١٩].

---

(١) دلائل الإعجاز. ط٢ (مكتبة القاهرة. القاهرة: ١٩٦١م) ص ٢٩٣، ص ٢٩٦.

يقول في ذلك أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبري:

(وقوله ﴿والله عليم بما يعملون﴾ يقول تعالى ذكره: والله ذو علم بما يعمله باعةُ يوسف ومشتروه في أمره، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولكنه ترك تغيير ذلـك ليمضي فيه وفيهم حكمه السابق في علمه، وليرى أخوة يوسف ويوسف وأباه قدرته فيه)[1].

ويمضي أبو جعفر الطبري في التعليق على ذلك يقول: (وهذا، وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن يوسف نبيه ﷺ، فإنه تذكير من الله نبيَّه محمداً ﷺ، وتسليةٌ منه له، عمَّا كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه، يقول: فاصبر يا محمد، على ما نالك من الله، فإني قادر على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كما كنت قادراً على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكف تركي ذلك لهوان يوسف عليَّ، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته. فكذلك تركي تغيير ما ينـالك به هؤلاء المشركون، لغير هوانٍ بك عليَّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثم يصيرُ أمـرُك وأمرهم إلى عُلوِّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الأذعان ليوسف بالسؤدد عليهم، وعلُوِّ يوسف عليهم)[2].

ومن ذلك مثلاً ما جاء من التعليق على الآية ﴿ولمَّا بلغَ أشدَّه آتيناه حُكماً وعلماً﴾ قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾[٢٢]. يقول أبو جعفر الطبري:

(وهذا، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فإنَّ المُراد به محمد

---

(١) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). تحقيق محمود محمد شاكر. جـ ١٦ (دار المعارف بمصر: ١٩٦٩م) ص ٧ (تفسير الآية).

(٢) المصدر ذاته ص ٢٤.

نبي الله ﷺ. يقول له عزَّ وجلَّ: كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من إخوته ما لقي، وقاسى من البلاء ما قاسى، فمكنته في الأرض، ووطأت له في البلاد، فكذلك أفعل بك فأُنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض، وأُوتيك الحكمة والعلم، لأنَّ ذلك جزائي أهل الإحسان في أمري ونهيي)[1].

وعلى ذلك أيضاً يُقاس قوله تعالى ﴿ولا نُضيع أجر المحسنين﴾ [٥٦] وقوله تعالى ﴿فإنَّ الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾ [٩٠].

ولأن قصة يوسف عليه السلام مقصودٌ بها وضع الأمور في إطارها الصحيح، وشدَّ الخيوط إلى حبكةٍ واحدة متجانسة تحت مِظلة الفكر الإسلامي والرؤية الإسلامية، كان قوله تعالى افتتاح السُّورة الكريمة: ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين، إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنتَ من قبله لَمنَ الغافلين﴾ [١-٣].

يقول أبو الفداء بن كثير تعليقاً على الآيات الكريمات:

(وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرُّسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة وهو «رمضان» فكمل من كل الوجوه، ولهذا قال الله تعالى ﴿نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾)[2].

---

(١) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

(٢) أبو الفداء اسماعيل بن كثير: مختصر تفسير ابن كثير. اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني. ط ٧ (دار القرآن الكريم. بيروت: ١٩٨١م) المجلد الثاني. ص ٢٣٩ (تفسير الآيات مُفتَتَح سورة يوسف).

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ أعلى مراتب البلاغة في التذوق الجمالي للسُّورة الكريمة هو الوقوف على مضامينها كما يُحدِّث «بتضعيف الدال المهملة وكسرها» به نسقُها القرآني الكريم باللسان العربي المبين من على هدي من أساليب العرب في القول وطرائقهم في البلاغة والفصاحة. وإنه من يحاول من أُمة محمد ﷺ أن يتذوق السُّورة الكريمة خارج إطار هذه المظلَّة الواضحة عربيَّتها، الرائعة دلالاتها، كأن يستهدي بما ابتدعه القُصَّاص في العصور المتأخرة، أو كأن يقارن ذلك بما ورد في الاسرائيليات على طرائقها «الأخيرة» في بَثِّ الروايات الكثيرة المتناقضة في الوقت ذاتهِ، يكون ـ في رأي كاتب هذا التذوق ـ كمن أراد اللَّيل على النَّهار دليلاً، وكمن أراد أن يرد غير الماء العذب النَّمير السلسبيل. وهو أمر قد أحسَّ به أبو جعفر الطبري رحمه الله بعدما وجد أنه «يعتسف» الطريق الصعب في تصفح وجوده الروايات المختلفة حول الأمر الواحد. فقال في صدد تعليقه على قوله تعالى ﴿وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ [٢٠].

(والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يُحدَّ مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ. وقد يحتمل أن يكون كان عشرين، ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقل من ذلك وأكثر. وأي ذلك كان، فإنها كانت معدودة غير موزونة).

ويضيف أبو جعفر الطبري مُعقباً:

(وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض. وما عداه فموضوعٌ عنَّا

تكلُّفُ عِلمِهِ)[1].

أمَّا إحساسُ رسول الله ﷺ بهذه السُّورة فيأتي من وجوه:

عن عكرمة قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئل عن البقرات العجاف والسِّمان، ولو كُنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له، حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»[2].

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ربِّ أرني كيف تحيي الموتى﴾، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[3].

وورد عن رسول الله ﷺ قوله عن عروجه في السماء «. . . ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف ﷺ. إذ هو قد أُعطي شطرَ الحُسن فرحَّب ودعالي بخير»[4].

وورد عن رسول الله ﷺ قوله: «إنكن صواحب يوسف» وذلك في الخير:

(قال الزهري: وحدثني حمزة بن عبدالله بن عمر، أن عائشة قالت:

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٦ ص ١٥ ـ ١٦. وانظر في التعليق على قول الطبري هذا ما كتبه الأستاذ الجليل محمود محمد شاكر بما يتفق ووجهة نظر كاتب هذا التذوق (الحاشية على ذات الموضع).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثاني ص ٢٥٣.

(٣) ذاته ص ٢٥٢.

(٤) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. (دار احياء التراث العربي. بيروت: ١٩٥٤) جـ ١ ص ١٤٦.

لما استُعزَّ برسول الله ﷺ قال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس. قال: قلت: يا نبيَّ الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال: مروه فليصلِّ بالناس. قالت: فعدت بمثل قولي، فقال: إنكن صواحبات يوسف، فمروه فليصلِّ بالناس، قالت: فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحبُّ أن يُصرف ذلك عن أبي بكر، وعرفت أن الناس لا يحبُّون رجلاً قام مقام أبداً، وأن الناس سيتشاءمون به في كلِّ حدث كان، فكنت أحبُّ أن يصرف ذلك عن أبي بكر)[1].

وكان يُقرن أبو بكر الصِّديق ـ علاوة على تسميته أو تسمية الله تعالى له بما كان يوسف الصِّديق ـ مع يوسف وأبطال قصة يوسف في التراث الإسلامي:

(أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته (أكرمي مثواه)، والقوم فيه زاهدون، وأبو بكر حين تفرَّس في عمر فاستخلفه، والمرأة التي قالت: (يا أبتِ استأجره)[2].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُغلِّس بالفجر ويقرأ سورة يوسف ويونس[3].

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر أن رسولنا ﷺ قد قال يوم فتح مكة: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»[4].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السَّقا ورفيقيه. القسم الثاني جـ٣، ٤. (دار الكنوز الأدبية. بيروت. بدون) ص ٦٥٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري جـ ١٦ ص ١٩.

(٣) انظر: عبدالله السجستاني: كتاب المصاحف. ط١ (المطبعة الرحمانية بمصر: ١٩٣٦م) ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية. المجلد ذاته ص ٤١٢.

وقول قريش: أخ كريم، وابن أخ كريم ـ تدل على وعي منهم كامل على تفصيلات سورة يوسف وترابط هواديها وأعجازها. فلكأنهم بذكائهم البلاغي كانوا قد رجوا أن يكونوا في مثل إخوة يوسف من يوسف في هذا الموقف التحوُّلي وذلك حين قال الله تعالى ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾[٩٢]، فكان أن استجاب لهم رسول الله ﷺ. والكريم هذه مفتاح قولة الرسول ﷺ: «الكريم بن الكريم يوسف ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم»[١].

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر. تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة (مطبعة نهضة مصر. القاهرة: ١٩٥٩م، جـ ٣ ص ٢٢. وانظر مختصر تفسير ابن كثير مجلد ٢ ص ٢٤٠.

وانظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير (المطبعة البهية. القاهرة: ١٩٣٨م) ط ١ جـ ١٨ ص ٨٣.

obeikandl.com